# السلام الداخلي مع الإمام؛ القضية التي تصوغ أسلوب حياتنا وتصنع طمأنينتنا

**لماذا لا تتشكّل الطمأنينة القلبية المستقرة من دون السلام الداخلي مع الإمام؟**

قد نمتلك كلّ شيء؛ مثل برنامج حياة منظّم، عملًا، مالًا، بل وحتى هدوءًا ظاهريًا، ومع ذلك نشعر في أعماق القلب بنوعٍ من عدم الانسجام الغامض؛ كساعةٍ تعمل بدقّة، لكنها بين حينٍ وآخر تتأخّر بلا سبب. لم يحدث أمرٌ استثنائي، ولا توجد أزمة كبرى، لكن كأنّ قطعةً ما في هذا النظام لم تُوضَع في مكانها الصحيح. هذا الإحساس مألوفٌ لكثير من الناس؛ شعور لا تزيله تسلية، ولا تعالجه نجاحات خارجية.

إذا اختلّ ضبط بوصلة سفينة قليلًا، فلن تغرق في اللحظة نفسها؛ بل قد تواصل الإبحار لمسافات طويلة على نحوٍ يبدو صحيحًا. غير أنّه كلّما طال المسير، ازداد البعد عن الوجهة المقصودة. كذلك هي حياة الإنسان، ما دام الارتباط الداخلي بالدليل الحقيقي للطريق، أي الإمام، غير منسجم، فقد نمضي سنواتٍ في الحركة، لكننا نبتعد تدريجيًا عن الغاية الحقيقية من حيث لا نشعر.

في منطق معارف أهل البيت عليهم السلام، ليست قضية الإنسان الأساسية مجرّد رؤية الإمام في ساحة المجتمع، ولا حتى إدراك زمن الظهور، بل القضية هي السلام الداخلي مع الإمام، علاقة ينبغي أن تستقرّ في أعماق النفس، وفي القرارات، وفي أسلوب الحياة. والقرآن يطلق تحذيره بوضوح: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِم»[1]؛ هذه الآية تكشف أن علاقتنا بالإمام ليست مسألة اعتقادية مجرّدة، ولا إحساسًا عابرًا، بل هي معيار هويتنا، ومسارنا، ومصيرنا.

حتى لو تحقّق ظهور الإمام المهدي عليه السلام، فإنّ كلّ إنسان لا بدّ أن يكون قد بلغ في نظامه الداخلي حالة السلام مع وليّ الله. وإن لم يقع الظهور لأي سبب خلال أعمارنا، فإنّ هذه المسألة تبقى قائمة، ويُسأل عنها الإنسان في الليلة الأولى من القبر. ومن هنا، فالسلام الداخلي مع الإمام ليس شأنًا مؤجّلًا إلى «مستقبل مجهول»، بل هو قضية «أسلوب حياة حاليا للإنسان الحيّ».

[1] سورة الإسراء، الآية ٧١

في هذا المقال نبيّن كيف يتشكّل السلام الداخلي مع الإمام، وعوائق تحول دونه، وكيف يمكن نقله من مجرّد مفهوم ذهني إلى تجربةٍ معيشةٍ ثابتة في حياتنا اليومية؛ وهو سلامٌ لا يثمر الطمأنينة النفسية فحسب، بل يمنح يقينًا وجوديًا راسخًا في طريق الدنيا والآخرة.

**القضية المحورية للإنسان: السلام مع وليّ الله**

يواجه الإنسان في مسيرة حياته قضايا متعدّدة: معيشة، علاقات، قرارات مصيرية، قلق من المستقبل، وخوف من الفشل. غير أنّه، وسط كلّ هذه القضايا، تبرز مسألة واحدة إذا لم تُحلّ، فلن تستقيم أيّ من القضايا الأخرى على نحوٍ حقيقي، وإذا حُلّت بصورة صحيحة، اكتسبت كثير من تعقيدات الحياة معنىً واتجاهًا. تلك المسألة هي علاقة الإنسان بوليّ الله؛ لا بوصفها اعتقادًا ذهنيًا مجرّدًا، بل حقيقةً حيّةً فاعلة في أعماق الإنسان.

لتقريب الصورة، تخيّل موظفًا يعمل في مؤسسة كبيرة، لكنه في الواقع غير منسجم مع المدير الأعلى للمؤسسة. قد يؤدّي مهامه، ويلتزم بساعات العمل، بل قد يبدو من الخارج شخصًا ناجحًا، غير أنّ قراراته، ما دامت غير منسجمة مع سياسات المدير وأهدافه، ستقوده عاجلًا أم آجلًا إلى الاحتكاك، والإنهاك، والإحساس بفراغ المعنى في عمله. فمشكلة هذا الموظف ليست التقصير ولا نقص الكفاءة، بل غياب الانسجام مع مركز القرار.

وهكذا هي حياة الإنسان. في منطق القرآن، لا يوجد إنسان بلا «إمام»؛ فإمّا أن يكون إنسانًا متوازنًا، فيكون إمامه وليّ الله، وإمّا أن لا يتحقّق فيه هذا التوازن، فيكون إمامه أحد أهواء أقسام وجوده المتعدّدة. ووفقًا للآية الحادية والسبعين من سورة الإسراء، التي وقفنا عندها سابقًا، فإنّ هويتنا النهائية تُقاس بمحور الاتّباع ومصدر التوجيه في حياتنا، لا بالادّعاءات، ولا بالمظاهر، ولا بالنيّات التي نصرّح بها.

من هذا المنظور، القضية الأساسية ليست أن نعدّ أنفسنا من المنتظرين، أو أن نعلن محبّتنا للإمام؛ بل السؤال الجوهري هو: هل نحن في نظامنا الداخلي وأسلوب حياتنا في حالة سلام مع وليّ الله أم لا؟ فالسلام هنا لا يعني غياب الصراع الظاهري، بل يعني الانسجام، والتوافق، وقبول مرجعية الإمام في القرارات والاختيارات.

ومثال أبسط على ذلك: سائق يعرف الطريق والغاية، لكنه لا يريد الالتزام بإشارات المرور. قد يسير فترةً من الزمن، لكن كلّما تقدّم، ازدادت كلفة السير عليه، وغدا الطريق أكثر غموضًا، فمشكلته ليست الجهل بالهدف، بل رفضه للاهتداء بدليل الطريق. وكثير من الاضطرابات الداخلية لدى الإنسان تبدأ من هنا بالذات؛ من موضع يعرف فيه الإمام، لكنه لا يضبط مسار حياته عمليًا على أساسه.

إنّ السلام مع وليّ الله يعني الإقرار بأنّ معيار التمييز بين الصواب والخطأ، والنفع والضرر، والتقدّم والتراجع، ليس مجرّد التحليل الشخصي ولا أعراف الزمان، بل هداية الإمام. وحيثما يُقصى هذا المعيار، فإنّ الإنسان، وإن بدا هادئًا في الظاهر، يعيش في داخله ازدواجيةً واستنزافًا خفيًا. وذلك هو عدم الانسجام الصامت الذي يختبره الكثير منّا، من دون أن يدرك جذورها.

وعلى العكس من ذلك، حين يتحقّق هذا السلام، فإنّ الحياة لا تنهار من الداخل، حتى في أقسى الظروف. تمامًا كفريقٍ يتناغم جميع أفراده مع خطّة المدرّب؛ فمهما كانت المباراة صعبة، أو كانت النتيجة المؤقّتة في غير صالحهم، فإنّهم لا يعانون الارتباك ولا التوتّر الداخلي. إنّ الانسجام مع وليّ الله يؤدّي الدور نفسه في حياتنا؛ فهو الإطار الذي يوحّد قراراتنا، ويجعل الطريق واضحًا، وينقذ القلب من التشتّت.

بناءً على ذلك، فإنّ القضية الأولى قبل كلّ شيء هي السلام أو القطيعة الداخلية مع وليّ الله؛ قضية لا تُرجأ إلى مستقبل مجهول، ولا تُحلّ بتغيّر الظروف الخارجية. هذه العلاقة تُبنى أو تُهدَم هنا والآن، في اختياراتنا، وأولوياتنا، وأسلوب حياتنا؛ ونحن بالذات، وبالعلاقة التي نصنعها، نسير في طريق الدنيا، وندخل مرحلة المساءلة النهائية.

**السلام الداخلي مع الإمام؛ قضية ترافق الإنسان إلى الليلة الأولى في القبر**

إنّ الكثير من مشكلات الحياة تُحلّ بتغيّر الظروف؛ فالفقر قد يزول بزيادة الدخل، والجهل يخفّ بالتعلّم، بل إنّ بعض حالات القلق تهدأ بتبدّل البيئة أو أسلوب العيش. غير أنّ هناك قضايا ليست من هذا القبيل؛ لا تتعلّق بالزمن، ولا تزول بتغيّر المواقع والظروف. هذه القضايا ترافق الإنسان من لحظات اتخاذ القرار في الدنيا إلى اللحظة التي يغمض فيها عينيه عن هذه الحياة. والسلام الداخلي مع الإمام من هذا النوع من القضايا.

قد يتصوَّر البعض أنّ المشكلة الأساسية هي عدم إدراك زمن الظهور أو العيش في عصر الغيبة؛ وكأنّ الظهور، لو تحقّق، سيُصلح كلّ شيء تلقائيًا. غير أنّ هذا التصوّر يُزاح المسألة عن موضعها الحقيقي. فحتى بعد الظهور، سيعيش الناس على أساس مقدار انسجامهم الداخلي مع الإمام. إنّ الظهور يكشف حقيقة الإمام، أمّا السلام الداخلي فهو أمر ينبغي أن يكون قد بُني في نفس الإنسان قبل ذلك.

ولتوضيح الفكرة، يمكن تشبيه الأمر بطالبٍ حضر سنواتٍ طويلة في صفّ معلّم، لكنه لم يتقبّل يومًا أسلوب التعلّم ولا قواعد الصف. وفي يوم الامتحان، فإن وجود المعلّم في الصفّ لا يغيّر شيئًا؛ لأنّ المشكلة لم تكن في عدم معرفة شخص المعلّم، بل في غياب الانسجام الداخلي مع مسار التعليم. وبالمثل، فإنّ رؤية الإمام أو إدراك زمن الظهور، إذا كانا من دون سلام داخلي، لا يحلّان المشكلة الجوهرية للإنسان.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بتعبيره الدقيق: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِم﴾. هذه الآية تبيّن أنّ الإنسان لا يُحاسَب بأمانيه ولا بادّعاءاته، بل بعلاقته الحقيقية والداخلية مع إمامه. وهذه العلاقة لا تتشكّل في لحظة الموت، بل هي ثمرة مسارٍ طويل من الاختيارات، والأولويات، وأسلوب الحياة.

من هذا المنظور، تكون الليلة الأولى في القبر بداية السؤال عن هذه العلاقة نفسها؛ عن المحور الذي كان الإنسان منسجمًا معه في حياته، وعن الجهة التي كانت تضبط مساره. تمامًا كالمسافر الذي يرتبط وصوله أو عدم وصوله إلى وجهته ارتباطًا مباشرًا بالطريق الذي سلكه أثناء السفر؛ فإن كان الطريق قد قُطع وفق الخريطة والدليل الصحيح، كان الجواب واضحًا، وإن لم يكن كذلك، فلن تُغني عنه أيّ تبريرات أو نيّات. فحياة الدنيا، وإن بدت لنا طويلة، هي في نسبتها إلى الآخرة مسار محدود؛ وإذا لم نضبط الطريق منذ بداية الرحلة، فلن تتوافر في نهايتها فرصة للإصلاح.

من هنا، فإنّ السلام الداخلي مع الإمام ليس قضيةً متعلّقة بـ«ما بعد الموت» ولا بـ«زمن الظهور»، بل هو شأنٌ مرتبط كليًا بحاضرنا. فكلّ قرار، وكلّ اختيار، وكلّ أولوية، إمّا أن تعزّز هذا السلام أو تضعفه. والإنسان يدخل العالم الآخر وفق هذا النظام الداخلي بالذات، لا وفق أمانٍ لم تُصحَّح، ولا نيّات لم تنضج. وبالنتيجة، إذا لم يستطع الإنسان أن ينسجم قلبه، وعقله، وعمله مع وليّ الله خلال حياته، فإنّ تغيّر المشاهد ووصول

زمن ظهور الإمام لن يغيّر جوهر عدم الانسجام. فالسلام الداخلي مع الإمام حقيقةٌ إمّا تُبنى في الحياة، وإمّا تبقى، إلى الليلة الأولى في القبر، مسألةً غير محلولة ترافق الإنسان.

**معنى السلام الداخلي وعوائقه**

عندما يُذكر «السلام الداخلي»، يتّجه الذهن غالبًا إلى الطمأنينة النفسية، أو عدم القلق، أو شعورٍ جيّدٍ عابر. غير أنّ السلام الداخلي مع الإمام أعمق بكثير وأكثر جذرية من هذه التصوّرات الشائعة. فهذا السلام ليس مجرّد إحساس بالراحة والأمن، بل هو دخول الإنسان في النظام الصحيح للوجود؛ ذلك النظام الذي يكون محوره وليّ الله.

في منطق القرآن والحكمة الإسلامية، يُفهم السلام على أنّه عودةٌ إلى حالة الانسجام بعد التشتت وعدم التناغم. فكلّما خرج شيء عن موضعه الحقيقي نشأ الفساد، وإذا عاد إلى مكانه الصحيح ظهر السلام والصلاح. وهكذا هو باطن الإنسان؛ فعندما ينفصل القلب والعقل والإرادة عن محور الهداية، يتكوّن نوعٌ من الاضطراب الخفي، وإن بدا ظاهر الحياة هادئًا ومنظّمًا.

ولتقريب المعنى، يمكن النظر إلى جسد الإنسان؛ فإذا خرج عضوٌ واحد، ولو كان صغيرًا، عن الانسجام مع بقيّة الجسد، فإنّه لا يفقد وظيفته فحسب، بل يُربك عمل المنظومة كلّها، وعلامة ذلك الاختلال هو الألم. وكذلك الاضطرابات الداخلية لدى الإنسان؛ فهي في الغالب إشارات إلى هذا الألم نفسه: ألم عدم الانسجام مع محور الهداية.

السلام الداخلي مع الإمام يعني أن يكون مركز القيادة في حياة الإنسان، حيث تتشكّل القرارات، والقيم، والأولويات، منسجمًا مع وليّ الله. في هذه الحالة يفهم العقل، ويطمئنّ القلب، ويتحرّك العمل في الاتجاه نفسه. ونتيجة هذا الانسجام هي طمأنينة تنبع من الداخل، لا طمأنينة معلّقة على الظروف الخارجية.

غير أنّ هذا السلام لا يُنال بسهولة، إذ تعترض طريقه عوائق جدّية؛ وأوّل هذه العوائق هو التمزّق الداخلي، وهو حالة يعرف فيها الإنسان ما هو الصواب في مستوى الإدراك، لكنّه في مستوى الإرادة ينجذب إلى شيءٍ آخر. كمن يعلم الطريق السليم، غير أنّ العادات القديمة تمنعه من السير فيه. بعبارة أخرى، حيث المعرفة حُصّلت، لكنّها لم تتحوّل إلى ملكة في القلب. هذه الازدواجية تستنزف الطاقة النفسية وتُفقد القلب سكينته.

العائق الثاني هو **الفهم الخاطئ للنجاح والسعادة**. فعندما يُبنى معيار النجاح على العرف السائد، أو مقارنات اجتماعية، أو منفعة قصيرة الأمد، يبتعد الإنسان، من حيث لا يشعر، عن مدار هداية الإمام. تمامًا كطالبٍ غايته العلامة لا التعلّم؛ فقد يحقّق تقدّمًا ظاهريًا فترةً من الزمن، لكنّه يُحرم من النمو الحقيقي على المدى البعيد. هذا النوع من النجاح لا يجلب سلامًا داخليًا، بل يزرع قلقًا خفيًا.

ومن العوائق كذلك الغفلة التدريجية؛ لا الغفلة المفاجئة الظاهرة، بل الابتعاد البطيء غير المحسوس عن معايير الهداية. فكثير من حالات عدم الانسجام الداخلي هي حصيلة قرارات صغيرة متتابعة؛ قرارات لا تبدو مهمّة كلٌّ على حدة، لكنها مجتمعة تغيّر مسار الحياة.

كما تُعدّ الأنانية وتمحور الإنسان حول ذاته من أخطر موانع السلام الداخلي مع الإمام. فحين يُقدِّم الإنسان تحليله الشخصي، أو ميله الفردي، أو مصلحته الآنية على هداية الإمام، يبدأ الصراع التي وإن بدا مبرَّرًا في الظاهر، يظهر في الداخل على هيئة قلق، أو تردّد، أو شعورٍ بالفراغ.

وأمام هذه العوائق، يكون السلام الداخلي مع الإمام بمعنى إعادة محور الحياة إلى موضعه الصحيح؛ أي تصحيح الرؤية، وإعادة النظر في الأولويات، ومواءمة أسلوب الحياة مع هداية وليّ الله. وهذا السلام ليس قرارًا لحظيًا، بل مسارٌ تدريجي يتكوّن بالوعي، والمراقبة، والعودة المتكرّرة إلى الطريق السليم.

وفي النهاية، حيثما يشعر الإنسان بعدم انسجامٍ عميق، أو اضطرابٍ بلا سبب واضح، أو إنهاكٍ داخلي، فليأخذ هذه الإشارة على محمل الجدّ؛ فهي علامة على أنّ موضعًا ما في نظامه الداخلي قد اختلّ فيه السلام مع الإمام. وترميم هذا السلام لا يكون بالهرب من الحياة، بل بإصلاح علاقة الإنسان بمحور الهداية؛ إصلاحٍ يجلب الطمأنينة لا بوصفها هدفًا، بل ثمرةً طبيعية له.

**أبعاد الصلح الداخلي مع الإمام**

الصلح الداخلي مع الإمام ليس حالةً غامضة ولا إحساسًا عابرًا؛ بل هو بناءٌ متماسك، ولا يثبت إلا حين توضع عناصر هذا البناء في مواضعها الصحيحة. فكثيرٌ من تجارب السكينة المؤقتة أو حالات القلق الداخلي المزمن تنشأ من تفعيل بُعدٍ واحد وإهمال الأبعاد الأخرى. فالصلح الذي يقوم على بُعدٍ واحد لا يدوم؛ شأنه في ذلك شأن الكرسي ذي الساق الواحد، مهما بلغ من المتانة، لا يصلح للاستعمال.

في منظور معارف أهل البيت (عليهم السلام)، يقوم الصلح الداخلي مع الإمام على ثلاثة أبعاد أساسية: البُعد المعرفي، والبُعد العاطفي، والبُعد العملي. هذه الأبعاد لا تعمل بصورةٍ منفصلة، بل في علاقةٍ حيّة ومتبادلة فيما بينها.

**١. البُعد المعرفي: معرفة مكانة الإمام في منظومة الهداية**

نقطةُ الانطلاق في كل ارتباطٍ حقيقي هي المعرفة. فبدون معرفةٍ صحيحة، قد تُضلّ حتى أصدق المشاعر صاحبها. ومن لا يعرف الإمام، لا يستطيع أن يعقد معه صلحًا؛ لأنه لا يعلم مع مَن ينبغي أن ينسجم، ولا على أي مستوى يكون هذا الانسجام.

ولتوضيح هذا البُعد، تصوّر شخصًا يريد استخدام جهازٍ صناعيٍّ معقّد من دون أن يقرأ دليل الإرشاد. قد يتمكّن من تشغيله، وربما ينتفع به فترةً من الزمن، غير أنّ احتمال الخطأ، والتلف، والتوقّف المفاجئ يبقى عاليًا جدًّا. الإمام في نظام حياتنا يقوم بدور ذلك الدليل الشامل. ومعرفة مكانة الإمام تعني إدراك أنه ليس مجرد شخصية تاريخية محترمة، ولا نموذجًا أخلاقيًا فحسب، بل **هو محور التمييز بين الحق والباطل، ومعيار الهداية الفردية والاجتماعية، والمنظِّم لمسار حياة الإنسان.**

في الرؤية الشيعية، الإمام هو عمود خيمة الدين، والواسطة في جريان الهداية الإلهية في العالم. وما لم تُفهم هذه المكانة على نحوٍ صحيح، تبقى العلاقة مع الإمام سطحية، ولا يتشكّل الصلح الداخلي. وكثيرٌ من حالات الاضطراب ناتجة عن هذا الجهل؛ حين يعتمد الإنسان في قراراته المصيرية على تحليله الشخصي أو على أعراف زمانه، بدل الرجوع إلى معيار الهداية، ثم يدفع ثمن هذا الخيار في أعماقه.

**٢. البُعد العاطفي: محبة الإمام والأمان القلبي**

المعرفة، إذا لم تنفذ إلى القلب، تبقى جافةً بلا روح. والبُعد العاطفي للصلح الداخلي مع الإمام هو الجسر الذي يحوّل المعرفة إلى تجربةٍ حقيقية. فمحبة الإمام ليست مجرد شعورٍ ديني؛ بل هي قوة دافعة تسوق الإنسان إلى السير في طريق الهداية. لتقريب هذا المعنى، يمكن التفكير في علاقة طالبٍ بمعلمٍ يثق بعلمه ويطمئن إليه قلبًا. في مثل هذه العلاقة، لا يكتفي الطالب بسماع كلام معلمه، بل يتكئ عليه حتى في

لحظات التردّد. تؤدّي محبة الإمام الدور نفسه؛ إذ تمنح الإنسان نوعًا من الأمان الداخلي، يخلّصه من التيه بين الخيارات المتناقضة.

كما أنّ القلب المرتبط عاطفيًا بالإمام يكون أقلَّ انهيارًا في الأزمات؛ ليس بسبب عدم وحود المشكلات، بل لأن القلب متصل بمحورٍ ثابت. هذه المحبة تخفّف الخوف من المستقبل، وترمّم شعور الوحدة الوجودية لدى الإنسان. ومن دون هذا الارتباط العاطفي، تفقد حتى أعمق المعارف فاعليتها عند منعطفات حاسمة في الحياة.

**٣. البُعد العملي: تناغم نمط الحياة مع هداية الإمام**

إذا لم تتجلَّ المعرفة والمحبة في ميدان العمل، فإن الصلح الداخلي يتآكل تدريجيًا. فالحياة اليومية هي ساحة الامتحان الحقيقية لهذا الصلح، والعمل هو المعيار الذي يبيّن مدى صدق المعرفة والمحبة.

وللتوضيح، تخيّل فريقًا يؤمن أفراده بقدرة المدرب ويحبّونه، لكن كل واحدٍ منهم، في أرض الملعب، يتصرّف وفق ذوقه الخاص. إن نتيجة هذا الوضع هي الفشل والارتباك. وكذلك هي العلاقة مع الإمام؛ لا تؤتي ثمارها إلا حين تُضبط القرارات، وتُرتّب الأولويات، ويُشكَّل نمط الحياة وفق هدايته.

هذا البُعد يشمل أدقّ الاختيارات؛ من أسلوب الاستهلاك، والعلاقات الاجتماعية، إلى طريقة التعاطي مع السلطة، والثروة، والشهرة، واللذّة. فالصلح الداخلي مع الإمام يتكوّن هناك، حيث يقدّم الإنسان معيار الهداية على الرغبة الآنية أو ضغط العُرف. هذا التناغم يولّد، مع مرور الزمن، طمأنينةً عميقة؛ طمأنينةً هي الثمرة الطبيعية للانسجام الداخلي. إذن، لا يتحوّل الصلح الداخلي مع الإمام إلى حقيقةٍ راسخة إلا حين تجتمع المعرفة الصحيحة، والمحبة الحيّة، والعمل المنسجم في مسارٍ واحد. فحيثما يضعف أحد هذه الأضلاع، ينهار الصلح، وتظهر آثاره في صورٍ من الاضطراب الخفي أو الظاهر في حياة الإنسان.

هذه الأبعاد الثلاثة ليست قابلةً للفصل عن بعضها، بل إن كلًّا منها يقوّي الآخر أو يضعفه. فالمعرفة تمنح الاتجاه، والمحبة تخلق الدافع، والعمل يُدخل هذين البُعدين في صميم واقع الحياة. وثمرة هذا الانسجام هي صلحٌ لا يتعلّق بالظروف الخارجية، ولا يزول بتغيّر الأحوال؛ بل يتجذّر في أعماق النفس، ويُبقي الإنسان ثابتَ الخطى على طريق الهداية.